في نظام البلاغة العربية- الأسس والإجراءات

أ. د. نشأت علي محمود

المقدمة

تعد البلاغة العربية عنوان نظام اللغة العربية في بيان ميدان إنتاجها وإجراءاتها التطبيقية العملية، فالبلاغة العربية هي ثمرة لمجموع نسيج أنظمة اللغة أي النظام الصرفي والصوتي والنحوي والمعجمي، وقد قامت البلاغة العربية على نظام متماسك له معاييره وأسسه كما أن لهذا النظام مقاصده وأغراضه التي على وفقها تسير إجراءات النص اللغوي، ولن نبحث هنا نشأة البلاغة العربية ووسائل بناء هذا الصرح الكبير مع أن التعريف بأسباب النشأة في كل علم يوضح لنا كثيرا من مفاهيم ذلك العلم ووظائفه وأغراضه وعمده وملحه، بل يوضح لنا موضوع ذلك العلم أيضا فضلا عن معرفة اسم الواضع، وإنما لم نذكر نشأة هذا العلم هنا لأننا ذكرناه في بحوث أخرى كما في بحثنا (في لسانيات البلاغة العربية)، ولكن الذي لابد من ذكره هنا أن البلاغة العربية باعتبارها علما قد نشأت أساسا لبيان إعجاز القرآن الكريم والرد على الطاعنين، ولاشك أن الجاحظ كانت له اليد الطولى في بحث بعض المفاهيم البلاغية والإشارة إلى مواضيعها ومواضعها ولكن كتب الإعجاز القرآني وكتب الرد على الطاعنين في بلاغة القرآن الكريم لها قصب السبق في تقسيم المفاهيم البلاغية وتحديدها وذكر الشواهد الشعرية فضلا عن القرآنية في إجراءاتهم البلاغية، والفضل كل الفضل كان لها في تثبيت البلاغة العربية باعتبارها علما، ثم بعد ذلك صار للبلاغة العربية نظام رصين له مفهومه وأسسه وإجراءاته، فكان للبلاغة مفاهيم مختلفة عن علم النحو والصرف مع أن البلاغة العربية هي ثمرة علم النحو، وتحددت مقاصد هذا العلم وتوضحت وظائفه الكلية والجزئية ونشرت أقسامه، فصار لعلم البلاغة أسس يقوم عليها ولايمكن فهم نظام البلاغة العربية دون معرفة هذه الأسس والطريقة التي قام عليها نظام البلاغة العربية في التحليل والتقسيم وبيان وجوه البلاغة، فالتحليل البلاغي والتقسيمات التي ثبتها علماء البلاغة وطريقة تلمس الفنون البلاغية لم تكن كلها ضربة لازب ولم توضع على غير بصيرة بل كانت ضمن نظام متين بحيث يستحق هذا النظام الذي جمع الأسس والإجراءات أن يكون عنوان نظام اللغة العربية وذروتها، وإني على يقين أن من يدرك هذا النظام ويستشرفه يستطيع أن يفهم أنظمة البلاغة في اللغات الأخرى بيسر وسهولة، والدليل على هذا أمران:

أحدهما- سعة موضوعات البلاغة العربية ودقة مفاهيمها وتقسيماتها وإجراءاتها وتحليلاتها بحيث يمكن للقارىء أن يقرأ البلاغة العربية في كتب الإعجاز القرآني وكتب النقد الأدبي وكتب الأدب نفسها فضلا عن كتب البلاغة العربية، وهذا مالايوجد في أي لغة أخرى، وهذا الأمر هو الذي منح علماء البلاغة في أن يصنفوا نحاة وأدباء ونقادا، فلا يوجد لعلماء البلاغة طبقات كما هو الحال عند النحاة والأدباء والمفسرين والفقهاء وغيرهم، والقول نفسه يجري في علم الصرف لاندراجه في علم النحو تحقيقا.

الثاني- ماصرح به علماء البلاغة والنقد البلاغي بقولهم ((من عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيَّأ له فيها من صنعة الكلام مثل ماتهيّأ له في الأولى، ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحوّلها إلى السان العربي)) العسكري، ٢٠١٣/٦٥، وقال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني ((العجم والعرب في البلاغة سواء، فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ماأمكنه في الأولى... ويدلك على هذا أن تراجم خطب الفرس ورسائلهم هي على نمط خطب العرب ورسائلها)) العسكري، /٨٩)، والبلاغة في اللغة الانكليزية والفرنسية مثلا ليست بعيدة عن البلاغة العربية في أنواع

فنونها، وإن كان لكل لغة خصوصيتها، ولسبب يخص البلاغة خُصَّت العربية بالقرآن دون غيرها من اللغات، ولاسيما أنه قد ثبت أن إعجاز القرآن في بلاغته كما هو مقرر.

وسنحاول في بحثنا ها تقرِّي الملامح المقاصدية في البلاغة العربية لضبط هذه المقاصدعند مواكبتها النصوص البلاغية، كما أن هذا البحث هو محاولة للاهتمام بالصلب وترك الملح أو تعيين الصلب من الملح، فلابد من استخلاص علم البلاغة من عواري المسائل التي لاتمتّ إلى البلاغة في شيء، بل وضعها في علم البلاغة عاريّة. وفي هذا البحث سنقوم ببيان الأسس والإجراءات التي قام عليها نظام البلاغة العربية، ليتضح هذا النظام ويمكن بعدها سهولة الولوج الى دراسته ومعرفة صناعة البلاغة العربية وطريقة الصياغة فيها، لعلمنا أن علم البلاغة لايزال يحتاج إلى بحوث وكتابات تخرج خرائده ودرره، فهو العلم الذي لم ينضج ولم يحترق، (السيوطي، ١٩٩، ٦/١) فكان البحث في محورين:

المحور الأول: أسس نظام البلاغة العربية:

نقصد بالأسس الأصول الكلية التي يندرج تحتها مسائل جزئية كثيرة، وهذه الأسس يمكن أن نعدها بجموعها معاييرتفهم بها البلاغة العربية، ولاشك أن هذه الأسس الكلية هي مفاهيم ولكنها ليست أصولا تجريدية ذهنية كما أنها لا تكتسب القبول من دون اطلاع على موضوعات البلاغة بفنونها الثلاثة، وسنقوم بذكر هذه الأسس على شكل نقاط و باقتضاب أحيانا بسبب طبيعة هذا البحث وإذا احتاج الأمر إلى بيان أتينا به وذلك فيما لابد منه، وهذه الأسس هي:

أولا-البلاغة العربية بنيت على أساس رصين تضمن الصيغ السليمة في بناء الكلمة المفردة.

فقد صنعت لنا البلاغة صنيعا لم يقم به أي علم من علوم العربية وهو ضبطها للألفاظ التي ينبغي استعمالها ودعت إلى التخلص من الألفاظ الرديئة والساقطة والمبتذلة، فأنشأت لنا مايمكن الاصطلاح عليه بمتخير الألفاظ الفصيحة المستعملة، وهذا الأمر لم تقم به المعاجم العربية لأنها قد جمعت كل الكلمات الواردة والمقيس عليها في محاولة للإحاطة بالفاظ العربية الواردة سواء قلّ استعمالها أو كثر وسواء كانت الكلمة رديئة في الاستعمال أو مشهورة ومستعملة، لأن مقصدهم في جمع الكلمات يختلف عن مقاصد علماء البلاغة فتغير منهج البحث تبعا للمقصد، ولهذا فقد حاولت البلاغة العربية أن تجمع الألفاظ التي يحسن استعمالها في الأساليب البلاغية من غير تحرير لهذه الألفاظ بل جمعتها من خلال وضع قوانين هذا المعجم(أقصد معجم متخير الألفاظ الفصيحة المستعملة)فهم ابتداء حصروا لنا كلمات القرآن الكريم التي هي كلها فصيحة، وهذا يسهل علينا كثيرا معرفة الكلمات الفصيحة بسبب الحكم على أن القرآن الكريم أفصح الكلام وأبلغه لوصوله إلى حد الإعجاز في النظم، فألفاظه فصيحة سهلة سلسة، ثم إن الكلمات التي صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أيضا فصيحة وتدخل ضمن متخير ألفاظ البلاغة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب فهو القائل((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش))، وقد وصف الجاحظ إمامُ علم البلاغة وواضعه كلامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال((وأنا ذاكرٌ بعد هذا فَنّاً آخرَ من كلامه صلى الله عليه وسلم، وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: " وما أنا مِنَ المتَكلِّفين " سورة ص/٦٨، فكيف وقد عابَ التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوطَ في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهَجَر الغريبَ الوحشيَّ، ورغِبَ عن الهجين السُّوقيّ، فلم ينطِقْ إلا عن ميراث حكمَة، ولم يتكلَّم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق، وهو الكلامُ الذي ألقَى الله عليه المحبّةَ، وغشَّاهُ بالقَبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيْن حُسنِ الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقِلّة حاجة السامع إلى معاوَدته، لم تسقط له كلمة، ولا زَلّت به قَدَم، ولا بارَتْ له حجَّة، ولم يَقُم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبدُّ الخُطَبَ الطِّوال بالكلِم القِصار ولا يَلتمِس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصِّدق، ولا يطلب الفَلْج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل الموارَبة، ولا يهمز ولا يَلْمز، ولا يُبْطِيءُ ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر، ثم لم يَسْمع الناسُ بكلام قَطّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصَدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرَم مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنًى، ولا

أبين في فحوَى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا)) (الجاحظ، ١٦/٢-١٨)، وصفا لقاضي عياض أيضا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ((وأما فصاحة اللسان و وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذى لا يجهل سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف.

أوتى جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله)) (عياض، ١٦٥/ه١٤٠٧)، فقد وضعت لنا البلاغة العربية مدونة كبرى في معرفة الكلمات الفصيحة التي تكون في متناول يد البلغاء والفصحاء ومن ينتهج صنعة البلاغة في كلامه، ثم إن علماء البلاغة لم يكتفوا بكلمات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لوجود مدونة أخرى واسعة ضمت كلمات العربية الفصيحة وهي ماأثر عن العرب من الشعر والنثر والأمثال والكلام المتداول، ولكن هذه المدونة الأخرى لم تكن مهذبة منقحة ويصعب على العلماء تصفيتها كلها بإزاحة غير الفصيح عن الفصيح، بسبب تعذر الإحاطة بكلام العرب ولسانها، وللحاجة إلى الرجوع إلى معاجم اللغة كلها واستقرائها، وهذايتعذر على الفرد الواحد، فإن لسان العرب أوسع الألسنة ويشتمل على كلمات يصعب الإحاطة بها، قال الشافعي ((ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولانعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لايذهب منه شيء على عامتها حتى لايكون موجودا فيها من يعرفه)) (الشافعي/١٢٨)، ولهذا اتجه علماء البلاغة إلى وضع قانون كليّ بحيث صارهذا القانون منهجا علميا في إدخال الكلمات ضمن متخير الألفاظ البلاغية وهذا القانون لم يكن مثل سائر القوانين اللغوية لأنه لم يعتمد على تحصيل الصفات اللغوية الوجودية لتعسر حصر الكلمات في ضوء قانون الوجود كما لو قيل مثلا إن الكلمات الفصيحة هي الكلمات السهلة السلسة فهذا الأمر يختلف فيه البلغاء قبل غيرهم والشعراء قبل الكتاب ويوقع المتكلم في خلط كبير.

ثانيا-استعمل علماء البلاغة قانون السلب والضبط بالأمور العدمية في توصيف الكلمة بالفصاحة لسهولة الحكم بعد عرض كل كلمة على هذا القانون،

فقالوا الكلمة الفصيحة هي التي تخلو من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي كما نبهوا إلى أثر الانفعال النفسي عند المتلقي في فصاحة الكلمة حين أوجبوا أن لاتكون تلك الكلمة مكروهة في السمع، لأن الألفاظ أصوات (التفتازاني، ١٣٩/٢٠٠٧-١٤٤)

فهذا القانون جمع سلامة البناء وكثرة الاستعمال ومراعاة العرف اللغوي في الاستعمال بأن تكون الكلمة مألوفة تحمل السلاسة الصوتية.وسيأتي الكلام على العرف اللغوي من حيث مفهومه ومساحته في البلاغة العربية.

ثالثا- إن الغرابة التي تضاد الفصاحة في البلاغة العربية لايقصد بها غرابة معنى الكلمة عند أي متكلم باللغة العربية

بل قصدوا بالغرابة مما يحتاج فيه إلى التنقير والبحث في معاجم اللغة لمعرفة معنى الكلمة، فقد تكون الكلمة غريبة عند بعض المتلقين دون غيرهم، وقد صنفت مصنفات في غريب القرآن وغريب الحديث، فهذا النوع هومن الغريب الحسن كما وصفه التفتازاني(التفتازاني، ١٤٢/٢٠٠٧-١٤٣)لأن فصاحة كل كلمات القرآن والحديث قد حسمت ابتداء، بل يمكن أن نقول إن الغرابة في الألفاظ ليست وصفا ذاتيا لها ولاعرضا لازما، فقد تكون الغرابة أو الابتذال الذي يلحق بالغرابة لزمن دون زمن ولمكان دون مكان،، فمثلا ماكان مشهورا معروفا من الألفاظ في زمن قد يكون غريبا في زمن آخر كما في أشعار الجاهليين والموغلين في البداوة، فألفاظها غريبة على شعراء العصر العباسي ومن بعده كعصرنا، فلاتكاد تجد كاتبا ولاشاعرا يستبطن تلك الكلمات الغريبة ويستحضرها في كتاباته وشعره وقد قسم حازم القرطاجني الغرابة والابتذال في الكلمة فرأى أن الكلمة على أقسام، وهذه الأقسام مفقودة من مناهج البلغاء وقد حفظها لنا السبكي في عروس الأفراح:(السبكي، ٧٢/٢٠٠٣-٧٣).

١×-ماستعمله العرب دون المحدثين وكان استعمال العرب له كثيرا في الأشعار وغيرها فهذا حسن فصيح.

٢×- ما استعملته العرب قليلا، ولم يحسن تأليفه ولا صيغته فهذا لا يحسن إيراده.

٣×- ما استعملته العرب وخاصة المحدثين دون عامتهم فهذا حسن جدا لأنه خلص من حوشية العرب وابتذال العامة.

٤×- ما كثر فى كلام العرب وخاصة المحدثين وعامتهم ولم يكثر فى ألسنة العامة فلا بأس به.

٥×- ما كان كذلك، ولكنه كثر فى ألسنة العامة، وكان لذلك المعنى اسم استغنت به الخاصة عن هذا، فهذا يقبح استعماله لابتذاله.

٦×- أن يكون ذلك الاسم كثيرا عند الخاصة والعامة، وليس له اسم آخر، وليست العامة أحوج لذكره من الخاصة، ولم يكن من الأشياء التى هى أنسب بأهل المهن فهذا لا يقبح، وليس يعد مبتذلا، مثل لفظ: الرأس والعين.

٧×- أن يكون كما ذكرناه إلا أن حاجة العامة له أكثر، فهو كثير الدوران بينهم، كالصنائع، فهذا مبتذل.

٨×- أن تكون الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب والمحدثين لمعنى، وقد استعملها بعض العرب نادرا لمعنى آخر، ويجب أن يجتنب هذا أيضا.

٩×- أن يكون العرب والعامة استعملوها دون الخاصة، وكان استعمال العوام لها من غير تغيير، فاستعمالها على ما نطقت به العرب ليس مبتذلا، وعلى التغيير قبيح مبتذل.

فهذه الأقسام توضح أن المعيار البلاغي لم يكن يعوِّل على قدم الكلمة في توصيفها بالفصاحة بل العبرة بالاستعمال من المتكلمين والقبول من المتلقين، مع شرط أن تكون الكلمة عربية في أصلها أي في جذرها اللغوي أو في صياغتها أي في بناء اشتقاقها على أوزان العربية.، فحسنُ موقع الكلمة في نفوس الجمهور يعد ركنا مهما في توصيف الكلمة بالفصاحة، ولهذا قصد الخطيب القزويني أن يضع معيارا وجوديا لتوصيف موجزلفصاحة الكلمة في قوله ((وعلامة كون الكلمة فصيحة أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيرا أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها)) الخطيب القزويني، ٨٠/١٩٩٩. فالاستعمال الكثير أو كثرة الاستعمال بالمقارنة مع غيرها في المعنى نفسه - أي بين الكلمات المتواردة في المعنى نفسه- هو المعيار في فصاحة الكلمة، وهذا الأمر يمهد لنا الطريقة المثلى في تعلم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وذلك بتعليمهم الكلمات الأكثر استعمالا، ويمكن جمع كلمات القرآن والكلمات التي تحدث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من غيرها فيكون لنا معجم صغير في الكلمات التي ينبغي تعليمها للناطقين بغير اللغة العربية ليغترفوا منها.

رابعا- لايرجع في تمييز الكلمات الفصيحة من غيرها إلى قوانين علماء اللغة وما وضعه أصحاب المعاجم،

كما أنه لايرجع في فصاحة الكلام إلى قوانين النحو والصرف، لأن معيار الفصاحة عند علماء اللغة والنحو والصرف هو كونها جاءت في زمن معين وهو زمن الاستشهاد الذي انتهى في ميدان الشعر بإبراهيم بن هرمة الذي توفي سنة ١٧٦ هجرية، فهو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم، وفي ميدان النثر حدد الاحتجاج بقبائل معينة حسب الموقع الجغرافي، وهذا التحديد كان من أجل تثبيت القواعد النحوية والقياس عليها، فهو معني بصحة بنية الكلمة وسلامة التأليف واستقامته، ولهذا فإن مقياس الفصاحة عند علماء اللغة هو ((ما أفصح عن المعنى، واستقام لفظه على القياس، لا ما كثر استعماله)) (اللخمي، ٣٦/١٩٨٨).فالعبرة في فصاحة الكلمة هو جريها على القياس اللغوي ودلالتها على المعنى، ولهذا يكثر في كتاب الفصيح وشروحه والكتب التي حاولت أن تؤسس لصناعة الكلام مثل إصلاح المنطق لابن السكيت ولحن العامةلأبي بكر الزبيدي وتثقيف اللسان وتلقيح الجنان لأبي حفص عمر بن خلف الصقلي النحوي اللغوي وكتب الألفاظ الكتابية مثل كتاب ابن السكيت وكتاب الهمذاني، أقول إن هذه الكتب يكثر فيها قولهم(وهو القياس وهو مقيس)، بل يكثر فيها الغريب من الألفاظ التي لايحبذها نقاد البلاغة، لأن معيار الفصاحة عندهم هو دلالة الكلمة على المعنى وصحة قياسها بمجيئها على وفق أوزان العرب.وأما الفصاحة عند الأدباء وعلماء البلاغة فهي أمر يأتي بعد صحة البناء وسلامة التأليف ولهذا قال ابن الأثير((وأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية، أونقل كلمة لغوية، وما جرى هذا المجرى؛ وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها))ابن الأثير، ١٤٢٤هـ، ١/٢٨٠-٢٨١.فالمرجع في إثبات الفصاحة هو ماأثبته نقاد الأدب وعلماء البلاغة، ومقياس الفصاحة عندهم هو ماكثر استعماله بعد مراعاة قوانين اللغة.

خامسا - عد أن وضع علماء البلاغة قانون اختيار الكلمات الفصيحة وأنشأوا المعجم النظري الذي يمكن أن نطلق عليه مصطلح (متخير الألفاظ الفصيحة المستعملة)

من خلال هذا القانون لجأوا إلى وضع قانون كليّ آخر يقربنا من إتقان صناعة النص السليم البليغ، فوضعوا قانونا يعرف به الكلام الفصيح من غيره، لأن الكلام الفصيح ليس هو عبارة عن تجميع الكلمات الفصيحة لتفيد معنى ما، واتجهوا إلى الطريقة نفسها التي صاغوا بها قانون فصاحة الكلمة وهو قانون السلب الكلي، فقالوا في تعريف فصاحة الكلام((خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها)) التفتازاني، ٢٠٠٧، ١٤٤، فهذا القانون الكلي يمكّننا من صناعة النص الفصيح إن اتبعنا مقتضياته، فهذا القانون اشتمل على اربعة شروط، لابد من اجتماعها كلها لتحصيل النص الفصيح، مع التذكير بأن علماء البلاغة إلى الآن لم يتطرقوا إلى صناعة النص البليغ الذي هو الغاية في البلاغة العربية بل هو الغاية القصوى في كل نص لغوي مؤلَّف، لأن النص الفصيح يختلف عن النص البليغ، فالفصاحة قد تكون متحصلة دون البلاغة، ولكن النص البليغ يستلزم أن يكون فصيحا، والنص الفصيح الذي يخلو من وصف البلاغة له حالتان :

١- ماإذا كان النص غير متناسق ولاموصول الأواصر والعرى، وهذا يتحقق في ربط الكلمات المفردة كما في ربط الكلمات من غير مناسبة لها في المعنى(التفتازاني، ٢٠٠٧، ١٤٧)، كما في جمع سطل مع قنديل أو مسجد مع رز، أو السماء مع القمامة، ويتحقق في ربط الجمل كما في ربط الجمل من غير علاقة مناسبة بينها مما بحثه علماء البلاغة في مبحث الفصل والوصل، لشرط المناسبة بين الجملتين في الرصف الذي عبر عنه علماء البلاغة بالجامع، (الخطيب القزويني، ١٩٩٩، ٢٨٠)فلا يصح أن نقول مثلا أقامت جامعة أكسفورد حفلا لطلابها ولاشك أن ساحل البحر في لبنان جميل، لفقد المناسبة والجامع والرابط بين الجملتين.

٢- ماإذا كان النص غير موافق لسياق النص أي عدم مطابقته لمقتضى الحال.-

سادسا-بعد النظر في تعريف علماء البلاغة لفصاحة الكلام

يتبين أن علماء البلاغة أرادوا أن ينبهوا إلى ثلاثة شروط لابد أن يتحقق بها صانع النص الفصيح وهي:

١-المعرفة بعلم النحو بما يستلزمه خلوص النص من ضعف التأليف وخلوه من التعقيد في النظم، إذ إنّ مثل هذا راجع إلى النحو، والكلام المستقيم السليم التأليف كثيراً ماتحدث عنه سيبويه في كتابه بل قدمه في بداية كتابه لأهميته(سيبويه، ٢٠٠٤، ٢٥/١-٢٦) بل كان من مقاصد تأليف الكتاب التعريف بطرائق تأليف النص العربي المستقيم الصحيح، ولهذا أشار علماء البلاغة إلى أن معرفة التأليف الضعيف من الصحيح في الكلام راجعة إلى معرفة القانون النحوي المشهور، بحيث يكون الكلام جاريا عليه(التفتازاني، ٢٠٠٧، ١٤٥)، فالعبرة بوضع الكلام على المشهور ولاعبرة بما تضمنته أشعار العرب مما يخالف المشهور وإن تكلفوا له وجها أو أجازه بعض النحاة، لأن علماء البلاغة حين وضعوا هذا القانون كانوا في مقام تعليم صناعة النص وليس في مقام التصحيح والتأويل، وهذا الأمر يعد سبقا لعلماء البلاغة في مهارات تعلم اللغة وتعليمها وذلك بأن يتبع معلم اللغة ومتعلمها صناعة النص اللغوي على المشهور من قواعد اللغة، ولم يقصد علماء البلاغة أن يكون صانع النص فحلا في النحوعارفا بقواعده ومسائله وخلافاته وشواهده، بل يكفيه أن يعرف كيف يصنع النص السليم المستقيم الصحيح التأليف.

٢- معرفة سنن التآلف بين الكلمات، فصحة رصف الكلمات وتناسق الجمل في الوصل أوالفصل شرط في تحقق صناعة نص فصيح، ولايقصد بصحة الرصف سلامة تأليف النص فهذا مرجعه إلى علم النحو، ولكن يقصد بصحة الرصف أن يكون الكلام سهل التتابع أو أن لايكون عسر النطق، باعتبار أن من صفات الكلام البليغ أن يجري على اللسان من غير تعثر، فالبلاغة لاتكتفي بفصاحة الكلمة المفردة مالم تكن مع صاحبتها سهلة الاستعمال قريبة المأخذ، بأن يكون بين الكلمات تلازم نحوي ولغوي أو تضايف كالعلة والمعلول والسبب والمسبب والسفل والعلو والأقل والأكثر والزيادة والنقص أو تماثل كالشمس

والقمر أو تضاد كالنور والظلام أو شبه تضاد كالسماء والأرض والسهل والجبل، ولاشك أن مجرى العرف والعادة والألف مما يصحح طريقة انعقاد الربط والرصف، ولهذا تختلف طرائق الرصف من زمن إلى آخر، فليست الفصاحة محصورة في زمن دون زمن ولابيئة دون أخرى،وهذا الأمر يجعل مرجعية الفصاحة إلى عرف المتكلم بعد مراعاة قوانيها، وفي القرآن الكريم كلمات لاتكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والرغبة والرهبة، الإيمان والعمل الصالح، الجن والإنس، الجنة والنار.

٣- معرفة وجوه العلاقات اللزومية بين المعنى الأول والثاني بشرط أن تكون هذه العلاقة معلومة في عرف المتلقين، وهذا يجري في الأساليب الإنشائية التي يراد بها غير معناها الحقيقي وفي الاستعارة والمجاز والكناية، فإن الانتقال الذهني من المعنى الأول الظاهر من اللفظ إلى المعنى الثاني المقصود لابد أن يكون سهل التلازم، وهذا التلازم هو تلازم عرفي وليس عقليا، لأن البلاغة هي صناعة كلام يوافق عرف المتلقين عقلا وبيئة وزمنا ومكانا وملابسات تكتنفهم، فأعراف المتلقين هي التي تصنع بلاغة الكلام وترفع شأنه وتجعله أقدر على إصابة المعنى وأشد تأثيرا في المتلقي.

سابعا- إن البلاغة العربية ليست مرتعا لبيان جماليات النص اللغوي فقط

كما يظن البعض كما أنها ليست ميدانا لتسابق المتكلمين بغريب اللغة والتشادق بالألفاظ المتعسرة على أفهام الكثيرين من الناس، فالغرابة ليست شرطا في حد البلاغة، بل((اصطلح أهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها في مرسل الكلام واستثقلوا الطويل، وهذا يدلك على أن البلاغة لاتعبأ بالغرابة ولاتعمل بها شيئا)) الخطابي/٣٧.فقد يضر الغريب بالنص ويحط من فصاحته، و((الغريب لم يكثر في كلام إلا أفسده وفيه دلالة الاستكراه والتكلف)) (العسكري، ٢٠١٣، ٩)، والفصاحةُ الظهورُوالبيان وليس الغموض والخفاء، ولعل نظرة في كلمات القرآن الكريم تبين لنا مكانة الكلمات المشهورة المستعملة وجمالية رصفها ونظمها.

ثامنا - إن البلاغة العربية لها أربع وظائف

قامت على وفقهما أسسها وإجراءاتها، وهذه الوظائف بإيجاز هي:

١- التعريف بمواضع الإعجاز وأحواله، وهذه القضية قد أشار لها أكثر علماء البلاغة باعتبار أن صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتبطة بمعرفة إعجاز القرآن(العسكري، ٢٠١٣، ٧-٨) وذكرالعلوي أن الغاية من معرفة البلاغة هي الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز(العلوي، ١٩٩٥، ١٣/١)، وهذه الغاية هي غاية دينية عقدية

٢- التعريف بطرائق إنجاز النص اللغوي الصحيح وهذا الأمر أشار له أبو هلال العسكري حين ذكر أنه يستعان بهذا العلم على صنع القصيدة وإنشاء الرسالة(العسكري، ٢٠١٣، ٢) كما صرح به الخطيب القزويني حين قال((إن البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد)(الخطيب القزويني، ١٩٩٩، ٨٩)

٣- التعريف بمستويات بلاغة النص فإن البلاغة مستويات تبدأ من الكلام المستقيم الصحيح وتصل إلى مستويات تبلغ بصاحبها أعلى مراتب البلاغة، وذكرهذاأبوهلال العسكري بين أنه بالبلاغة يفرق بين الجيد والرديء والنادر والبارد من القول (العسكري، ٢٠١٣، ٨)كمانص عليه الخطيب القزويني أيضا.(الخطيب القزويني، ١٩٩٩، ٨٩)٤-التعريف بمواضع جماليات النص ومكامن روعة التعبيروهذه الوظيفة هي وظيفة توصيفية تجري في ميدان الإثارة النصية ولاشك أنها تؤثرفي إنجازية النص وتقبله.

تاسعا-إن البلاغة حصيلة القواعد النحوية والصرفية واللغوية،

فلا يمكن دراسة البلاغة من غيرمعرفة هذه القواعد الكلية كما لا يمكن التعبير بنص بلاغي خارج عن هذه القواعد، وقد نبه الخطيب القزويني إلى هذاالأصل حين أرجع طريقة تمييزالنص الفصيح من غيره إلى علم اللغة والصرف والنحو(الخطيب القزويني، ١٩٩٩/٩٠)

عاشرا-يعد كلٌ من المران والدربة أساسا

مهما في التعبير الفصيح والتأليف

البليغ، فأول الطريق يكون بمتابعة النصوص البليغة والفصيحة لينسج المتعلم صناعة البلاغة على شكلها ومعانيها، وطريق صناعة النص البليغ تبدأ بالتعلم والتقليد، ولاشك أن السير على منازل التقليد يورث مرانا في صناعة النص البليغ وبعده يكتسب الألفة حتى يصل إلى الذوق الذي هو منتهى غاية التعلم إذ يكون كالملكة.، وقد أوجب ابن الأثير المران والإدمان على تعلم أساليب الفصحاء فهما اللذان ((يجعلان من عسرك بالقول إمكانا وكل جارحة منك قلبا ولسانا))(ابن الأثير، ١٤٢٠ه، ٢٥/١)، بل دعا ابن الأثير إلى تقليده في بعض مسائل البلاغة(ابن الأثير، ١٤٢٠ه :١٧٢/١)وقد عدّ السكاكي كلا من المران والدربة مسلكاً في تعلم البلاغة، فنبه على أن((ليس الواجب في صناعة وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشيء عليها في استفادة الذوق منها فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكمات وضعية واعتبارات إلفية، فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه وإن فاته الذوق هناك إلى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق)) (السكاكي، ١٩٨٣، ١٦٩)ولاأظن السكاكي قد قصد أن يكون التقليد مختصا بالبلاغة العربية بل هو عام يجري في كل اللغات.

الحادي عشر - يعد الذوق معيارا مهما في معرفة كثير من الأحكام البلاغية،

وهو الحاكم في علم البلاغة، والذوق يتحصل من المران والدربة والتعود على أساليب البلغاء واستكناه نصوصهم كما تقدم في المسألة السابقة، وقد أحال السكاكي إدراك الإعجاز إلى الذوق، وإن كان في كلامه نظر سيأتي بيانه قريبا إن شاء الله.كما سيأتي القول بأن الذوق هو المعيار الحقيقي في فصاحة الكلمة،

الثاني عشر- رتب فصاحة الكلمات متفاوتة،

فقد تكون الكلمة فصيحة وذلك إذا كانت في موضعها وفي مقامها وسياقها، وقد تكون الكلمة نفسها غير فصيحة في موضع آخر نابية عن مكانها، فالفصاحة ليست وصفا ذاتيا للكلمة لاتجاوزها بل بحسب موضعها وسياقها ومناسبتها، (فالالفاظ تتفاوت بتفاوت المقامات) (عصام الدين، ١٧٠/١)، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك في موضع ثم تراها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة:

تلفَّتُ نحو الحيِّ حتى وجدتني

وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

فإن لها مكانا حسنا، ثم إنّكَ تتأمَّلها في بيت أبي تمام:

يا دَهْرُ قوِّمْ من اخْدَعَيْكَ فقدْ

أضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خَرُقكْ

فتَجدُ لها منَ الثقل على النفس، ومن التبغيض والتكْدير، أضعافَ ما وجدتَ هناك منَ الروْح والخفة، ومن الإيناس والبهجة.(الجرجاني/٤٦-٤٨). وقال ابن الأثير((ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك في كلام، ثم تراها في كلام آخر فتكرهها؛ فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها.وسأضرب لك مثالا يشهد بصحة ما ذكرته، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر؛ فجاءت في القرآن جزلة متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة، فأثّر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين؛ أما الآية فهي قوله تعالى:

(فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق).وأما بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبي :

تلذّ له المروءة وهي تؤذي

ومن يعشق يلذّ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة، إلا أن لفظة «تؤذي» قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن فحطّت من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها في تركيب الآية))(ابن الأثير، ١٤٢٠، ١٥٢/١-١٥٣)، وقد نبه ابن الأثير إلى أن طريقة رصف كلمة (تؤذي) في العربية أن تكون مندرجة مقترنة مع مايأتي بعدها متعلقة به ولاتكون منقطعة كم فعل المتنبي، فالكلمة قد تكون مستجمعة صفات الفصاحة ولكن ليس بالضرورة أن يكون الكلام المتضمن الكلمات الفصيحة فصيحا لأن فصاحة الكلام راجعة إلى طريقة رصف الكلمات وإلى اعتبار المقام الذي قيلت فيه فينتج حينئذ الكلام البليغ.

الثالث عشر- صفة الفصاحة التي بحثها علماء اللغة والنحاة

كانت لتحديد زمن الاستشهاد النحوي أو اللغوي أو جغرافيتهما، فانشغلوا بتحديد زمن الاستشهاد في الشعر وتحديد القبائل التي لم تخالط الأعاجم في النثر، فالفصاحة عند اللغويين والنحاة مرتبطة بالنقاء(تمام حسان، ٢٠٠٥، ٣٠٨)

بينما تعرف الفصاحة –للكلمة المفردة والكلام– عند البلاغيين بمعيارية أخرى لاتتعلق بزمن ولاقبيلة بل بالذوق وإن وضعت للفصاحة البلاغية شروطا ولكنها ليست مقيدة بزمن ولاموضوع، ولهذا أرجع الخطيب القزويني معرفة فصاحة الكلمة المفردة إلى الاستعمال الكثير من الموثوق بعربيتهم أو كثرة الاستعمال.

الرابع عشر- رتب البلاغة متفاوتة (السبكي، ٢٠٠٣، /٧٢)،

لتفاوت فصاحة الكلمات وفصاحة الكلام والاختلاف في معرفة مناسبات الكلام مما يستلزم التفاوت في بلاغة الكلام.ولهذا قال السكاكي(وللبلاغة طرفان أعلى وأسفل متباينان تباينا لايتراءى له ناروبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر متفاوتة، فمن الأسفل تبتدىء البلاغة...ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حداً لإعجاز عجيب يدرك ولايمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولايمكن وصفها، وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين) (السكاكي، ١٩٨٣/٤١٥-٤١٦)، ويقصد بالعلمين علمي المعاني والبيان.فمعرفة وجوه البلاغة متيسرة في القرآن وغيره ولكن معرفة نفس وجه الإعجاز فلا يدرك في نظر السكاكي، ولعل مااختاره السكاكي هو نوع من الصرفة، وإلا فكيف لايدرك وجه الإعجازحين المقارنة بين نص قرآني وغيره في المعنى نفسه، كما فعل السكاكي نفسه حين قارن بين قوله تعالى(ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب لعلكم تعقلون) وقول العرب (القتل أنفى للقتل) فالمقارنة تعرف بوجه من وجوه الإعجاز وليس كلها، لأن الإعجاز في القرآن الكريم لايكون في وجه واحد فقط كأن يكون في اختيار الكلمة المناسبة مثلا أو في مناسبة المقام أو غيرهما بل الإعجاز القرآني في نظرنا هو وجوه متعددة لاتنقضي في زمن معين، فكلما توالت أزمان حضرت وجوه أخرى.

الخامس عشر- البلاغة ليست توصيفا للكلام فقط،

فقد يكون سكوت مايستوجب الكلام بلاغة، قال ابن المقفع((البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة منها مايكون في السكوت)) (الجاحظ، ١/)وهذه البلاغة تفارق بلاغة الحذف الذي هو من فنون البلاغة المبحوث في علم المعاني، فسكوت المتكلم قد يعد من البلاغة، وذلك في حالة أن يكون المتلقي لاينفع معه القول، والسكوت مقال مجازي فيدخل تحت قول البلاغيين لكل مقام مقال، فبعض المقامات تستدعي سكوتا، وقد أوجز أبو هلال العسكري مواضع بلاغة السكوت بذكر أمثلتها، فقال((فالسكوت يسمى بلاغة مجازا، وهو في حالة لاينجع فيها القول ولاينفع فيها إقامة الحجج، إما عند جاهل لايفهم الخطاب أو عند وضيع لايرهب الجواب أو ظالم سليط يحكم بالهوى ولايرتدع بكلمة التقوى وإذا كان الكلام من الخير أو يجلب الشر فالسكوت أولى، كما قال أبو العتاهية:

ما كلّ نُطْقٍ له جوابُ
جوابُ مايُكْرَه السكوتُ

..وربما كان صمتك في حال أوفق من كلامك))(العسكري، ٢٠١٣/١٩)، وقد يكون السكوت بيانا وبلاغة، ولاشك أن هذه الإشارة البيانية لبلاغة السكوت تعد مدخلا جديدا لفهم طرائق البلاغة.

السادس عشر-من البلاغة مايصح أن نطلق عليه بلاغة الاستماع،

وهذه عائدة إلى المتلقي، فإن الاستماع فن لأنه موصل إلى وضوح الدلالة وحسن الفهم، قال أبو هلال العسكري((فإن المخاطَب إذا لم يحسن الاستماع لم يقف على المعنى المؤدي إليه الخطاب، والاستماع الحسن عون للبليغ على إفهام المعنى.. وحسبك من حظٍّ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولايؤتى الناطق من سوء فهم السامع)) (العسكري، ٢٠١٣/٢١)، فليست البلاغة في إطلاق الكلام الفصيح، ولن يوصف الكلام بالبلاغة مالم يعلم المتكلم موقف المتلقي من فهم كلامه، ولاأقصد إنجاز الكلام بل فهمه ووضوح معناه، فالبليغ مكلف بحسن إفهام المخاطَب، كما أن الاستماع بلاغة، فينبغي أن يقوم البليغ بانتهاز الفرصة لإفهام السامع.فمعرفة مواقع الفرصة في إنتاج النص من البلاغة، ويمكن أن نعبر عن هذا المعنى ب(حسن التأقيت في الخطاب)، وهو راجع إلى مقتضيات الخطاب، وهذه المقتضيات ينبغي على المتكلم البليغ استبصارها، فقد يدع المتكلم الإفصاح في الكلام ويعدل إلى الكناية حين يكون طريق الإفصاح عسِرا، وحينئذ تكون الكناية هي البلاغة، فيكون الاستماع أوعى وأبلغ.

المحور الثاني إجراءات نظام البلاغة العربية:

لقد خالفت إجراءات البلاغة العربية الإجراءات التي قامت عليها الأنظمة

الأخرى في اللغة العربية، فلم يعتمد نظام البلاغة العربية المعيار الزمني أو الجغرافي في تحديد البلاغية من غيرها، فقد يحكم نظام البلاغة على بيت لامرىء القيس بأنه غير بليغ ويحكم على بيت لشاعر معاصر بأنه من البلاغة بمكان.بخلاف النظام النحوي الذي اعتبر المعيار الزمني هو الأساس في الاحتجاج بالنصوص في إثبات القواعد النحوية أو الصرفية، كما بين البحث إجراءات أخرى قام عليها نظام البلاغة العربية، ومنها:

اولا - صورة المعنى في التشبيهات والاستعارات

لابد أن تكون مقبولة عند المتلقي، وليس للابتكار وللابتداع فضل وميزة إذا قبحت الصورة أو كانت مستهجنة، والمرجع في هذا هو العرف، أي عرف التخاطب، فذكر مالايعتاد عليه الجمهور ليس من البلاغة، لأن على البليغ أن يعتمد المعاني الجُمهورية، فقد أوجب أبو هلال العسكري على البليغ أن((يتوخى فيه-أي في كلامه- الصورة المقبولة والعبارة الحسنة، ولايتكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه، ولايغره ابتداعه له، فيُساهل نفسه في تهجين(تقبيح) صورته، فيُذهب حسنه ويُطمس نوره ويكونَ فيه إلى الذم أقرب منه إلى المدح)))العسكري، ٢٠١٣/٦٦)، إن هذا الأمر يوضح لنا أن البلاغة لم تقم على الإغراب في المعاني التشبيهية والاستعارية، ولانقصد بهذا الكلام عدم استعمال الفكر في اقتناص المعنى، فهل شيء أحلى من النظرإذا صادف طريقا واضحا إلى المراد؟، فالبلاغة في متناول اليد إذا حسن استعمال الكلام ووفّي حقه، ولننظر إلى تشبيهات القرآن والحديث فإنَّ صور المعاني فيها مقبولة عند المتلقي واضحة وهي من عرف الناس، ولم يرد فيهما صورة مبتدعة غير معروفة.

ثانيا - صناعة النص البلاغي مرتبطة بمايحتاجه المتلقي،

قال أبو هلال العسكري((وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاما ولكل حال مقاما، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار الحالات)))العسكري، ٢٠١٣/١٢٥)، فلايصح مخاطبة الجمهور بلغة الفلاسفة مثلا، وقد خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم كل قوم بما ناسبهم، فقد استعمل كلمات البداوة مع أهلها.

ثالثا - ديمومة النص عند علماء البلاغة

مرتبطة بانسجامه وارتباط بعض أجزائه ببعض، ولهذا فضل الشعر على النثر، فقد طال بقاؤه على أفواه الرواة وامتداد الزمان، ولهذا يستفيض بين الناس، (العسكري، ٢٠١٣/١٢٦)وقد استفاض القرآن الكريم بانسجام نصوصه وتواثق أواصره فسهل حفظه، ولهذا انتشرت الدراسات التي تعنى بتناسب الآيات والسور، فظهرت بلاغة الانسجام النصي في القرآن الكريم.

رابعا- إن البلاغة العربية لاتقتصر على معرفة فن واحد والتحذق فيه،

فلابد من تصور البلاغة باعتبارها وحدة موضوعية متكاملة وصورة واحدة يرفد سابقها لاحقها ويشد آخرها أولها، فلا مجال لتقطيع أوصال البلاغة من غير رباط يشد أوصالها أو سلك ينظم دررها، وماأشبه هذه الوحدة الموضوعية لعلم البلاغة بالانسان الصحيح السويّ، فكما أن الإنسان لايكون إنسانا حتى يستنطق، فإنه لاينطق بالعين وحدها ولابالرأس وحده ولابالسان وحده، بل بجملته باعتباره إنسانا، فشأن البلاغة كشأن الإنسان، فلايمكن الاكتفاء بفن المعاني مثلا والتبحر فيه من غير معرفة سائر فنون البلاغة، ومن أتقن فنا واحدا كان كمن رسم عضوا واحدا من أعضاء الإنسان كاليد مثلا ليقدم صورة الإنسان للآخرين، نعم قد يكون إتقان فنٍّ مسهلا لمعرفة فنٍّ بلاغيٍّ آخر وليس كافيا فيه، فمن أتقن فنَّ التشبيه ومهر فيه سهلت عليه فنون علم البيان، قال السكاكي في التشبيه معللا سبب تقدمه على المجازو الاستعارة والكناية و((فهو الذي إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني))(السكاكي، ١٩٨٣، ٣٣١).بل إن الاستعارة بنتُ التشبيهِ، والكنايةُ تبع لهما، ومعرفة المتبوع مقدمة على معرفة التابع.

خامسا - دلالة الأسلوب منوطة بمآل تنزيله:

فالأساليب البلاغية لها أشكال تركيبية، ولكل أسلوب طريقته في الأداء، فالخبر له طريقة في الأداء، وذلك بأن يكون النص محتملا للتصديق والتكذيب، كقولنا السماء ممطرة، والإنشاء نوعان وهما الإنشاء الطلبي والإنشاء غير الطلبي،

والإنشاء الطلبي له طريقة في الأداء وذلك بأن يتضمن صيغة دالة على الطلب، مثل قولنا كُل من هذا الطعام أو اشربْ الماء صافيا، ومثال الإنشاء غير الطلبي أساليب الاستفهام والنداء، ولكن لايمكن الحكم على دلالة هذه الأساليب وبيان نوعها من صورتها أو شكلها التركيبي فحسب، بل لابد من الاهتمام بالعوارض التي تكون سببا لتغير دلالة الأسلوب، والعوارض تدخل ضمن ماوسمه البلاغيون ب(مقتضيات المقام)، ولهذا فهي تختلف بحسب الوقت والحال وماتقتضيه الواقعة اللغوية، فينزل الأسلوب على وزان الخصوصية النصية،

سادسا - إن البلاغة العربية لم تنصّ على دلالة كل جزئية من الأساليب البلاغية على حدتها،

فقد تكفلت كتب النقد البلاغي بذكر بعض هذه الدلالات مثل كتاب العمدة لابن رشيق والشعر والشعراء لابن قتيبة والموازنة للشريف الجرجاني، وأما كتب البلاغة فقد نصَّت على أموركلية وعبارات مطلقة تتناول تراكيب غير محصورة مع النظر إلى خصوصية كل تركيب بحيث تكون له دلالة ليست في غيره، فنصوص البلاغة هي قوانين كلية، وهذا يجعلنا نفهم البعد التنزيلي لكل نص بلاغي على أنه نسق كلي ينظم الشتات كثير من الجزئيات، وهذا الأمر لايقتصر على البلاغة العربية بل هو بعد في البلاغة الكلية إن صح التعبير، ولاشك أنّ هذه الجزئيات (التراكيب اللغوية السليمة الفصيحة) غير محصورة، ولايصح حصرها أبدا، ومع أنها غير محصورة فهي تدخل في سياق الكلي وهو مناط تنزيل النص اللغوي على واقعته(المقال والمقام) الذي يفسِّر لنا نوع الأسلوب وتحولاته الدلالية وسبب إنجازه في وقت دون آخر، وفي حال دون آخر، وهذا يدفعنا إلى الخروج في تحليل النص اللغوي من أسر الدلالات المعجمية للنص أو من أسر شكله وصورته إلى تحرير دلالة التركيب وتعين مقصده وتوضح مراميه وأبعاده.وهذا الأمر ينقل لنا إجراءات البلاغة من المعيارية الضيقة إلى المقصدية الرحبة المرنة.

سابعا - فنون البلاغة معجونة بماء المقاصد:

إن الفنون البلاغية والأساليب اللغوية التي أرست دعائم البلاغة معجونة بماء المقاصد، فلا نكاد نجد بحثا بلاغيا من غير استدعاء لمقاصد البلاغة، وقد استهل علماء البلاغة كل فن بلاغي بذكر مقاصده وأغراضه، ولم يحصروا هذه المقاصد بل تركوا الباب مفتوحا حسب مقتضيات العرف والعصر.وهذا ماناراه بوضوح عند السكاكي حين استهل أي مبحث بقوله ((وأما الحالة التي تقتضي...)) (السكاكي، ١٧٧/١٩٨٣ ومابعدها) وعبر الخطيب القزويني عن هذه المقاصد بالأغراض والمقاصد(الخطيب القزويني، ١٩٩٩، ١٠٢، ١٢٠ومابعدها)، وقال الخطيب أيضا في بيان عدم انحصار المقاصد فيما ذكره علماء البلاغة((وإما لاعتبار آخر مناسب لايهدي لمثله إلا العقل السليم والطبع المستقيم))(الخطيب القزويني، ١٢٠) وقد كرر الخطيب عبارة (وإما لاعتبار آخر مناسب) بعد ذكر مقاصد كل موضوع بلاغي تقريبا.وقد استقرأت مقاصد البلاغة العربية وحصرتها في خمسة مقاصد كلية تندرج فيها كل المقاصد الجزئية مباشرة أو بلطيف المأخذ كما ذكرته في بحث (في لسانيات البلاغة العربية)، وهذه المقاصد الكلية هي(مقصدية الإيضاح والبيان ومقصدية المبالغة ومقصدية الاستدلال ومقصدية الجمال والإثارة ومقصدية الإيجاز)، فالنص البلاغي يمثل مقصد صاحبه، بل يمكن صياغة مفهوم كلي فنقول إن بناء النص يكون على وفق مقصده، ولهذا عنيت البلاغة العربية بذكر مقاصد فنونها وموضوعاتها، فكان لابد من الاهتمام بثمار البلاغة، فالبحث البلاغي لابد أن يتسجلي ثمار البلاغة وقطوفها، وذلك بمعرفة غاية علم البلاغة وغرضه، ثم لابد من استبطان مقاصد هذا العلم في البحث البلاغي، ويمكن أن نقول إن من لايعرف مقاصد البلاغة لايستطيع أن يصوغ العبارات في مقامها، ومن ثم تنفصم عرى البلاغة عن هذه العبارات والنصوص اللغوية، فتكون عبارات باهتة، ولابد من الإشارة إلى أن احتفاءنا بالمعرفة المقاصدية لعلم البلاغة لايعني إلغاء ماذكرناه من قبل من أساسيات البلاغة ومفاهيمها الإجرائية كما في طريقة تأليف النص السليم الفصيح واستدعاء ملامح الجمال والإثارة والمقتضى الدلالي التي قلما ينفك عنها البحث البلاغي.

ثامنا - تفاوت المقاصد ملحوظ في البلاغة العربية،

وقد قدمنا من قبل تفاوت فصاحة الكلمات وتفاوت فصاحة الكلام وتفاوت بلاغة الكلام، فالمقاصد متفاوتة في الترتيب والأسبقية، فأول المقاصد التي

لابد من مراعاتها هو الوضوح والبيان التي لاينفك عنها أسلوب، والكلام والاستماع بنيا على الفهم والإفهام(الجاحظ، ٧٦/١)، والبلاغة هي إيضاح المعنى وتحسين اللفظ (العسكري، ٢٠١٣، ١٦-١٧)، ثم يأتي مقصد الاستدلال أو إقامة الدليل الذي مرجعه إلى الإقناع والتأثيرعلى المتلقي بمقتضيات الخطاب، ثم الجمال والإثارة ثم المبالغة ثم الإيجاز، وهذا الترتيب هو فرضية بحثية بعد النظر في كتب البلاغة ونقدها.وحين نثبت تفاوت المقاصد وأن بعضها أولى بالاعتبار من بعض فهذا لايعني التقاطع بينها أو نفي التكامل في النسيج العام، فالمقصد الجزئي خادم للكلي، ومقصد الوضوح والبيان مبدأ لسائر المقاصد، وإن كان الإلغاز والإبهام قد يجري في بعض الأساليب ولكنه ليس مقصدا بل هو وسيلة لمقصد الإثارة والجمال، وهنا ينبغي التفؤيق في البحث البلاغي بين الوسائل والمقاصد، فالعبرة بالمآل بعد اعتبار مقتضيات قانون صناعة النص البلاغي، وهذا لايعني عدم الاهتمام بالوسائل لأن المخلّ بالوسائل مخل بالمقاصد، فلابد من الاعتناء بصياغة الأساليب البلاغية وطريقة أدائها وصناعتها.

تاسعا - لابد من وضوح المقصد والغرض

(ويلحظ أننا استعملنا الغرض بمعنى القصد مع أن بينهما فرقا دقيقا ولكنا نظرنا إلى المعنى المتوارد فيهما)، وقدعبرعن هذا المعنى كثير من البلغاء والأدباء الذين أسسوا لطريقة صناعة الكلام، فلابد في الكلام البليغ من وضوح الغرض (العسكري، ديوان المعاني/٨٧) والبلاغة هي وضوح الدلالة(العسكري، ديوان المعاني٨٨).

عاشرا - البلاغة هي الكلام الصواب الصحيح السهل الحسن المعرض

إذ ينادي المعنى على نفسه فلايحوج إلى فحص المعاجم لمعرفة معانيه ولايطلب تكلفا لتصحيح عباراته، فالبلاغة هي الكلام الذي يفهمه الناس عامة ويرضاه أصحاب الذوق البلاغي والمتضوعون لأساليب البلاغة وعباراتها، والبلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه(الجاحظ، ٩٠/١)

أي الكلام الواضح المعنى غير مشكل المقصد، فليست البلاغة في التشدق واستعمال الكلمات الغريبة والتعبير عن المعنى من غير طريقه، ولو نظرنا إلى القرآن الكريم وأحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم لرأينا سهولة الكلام وسلاسة التعبير ولطافة العبارة وشرف اللفظ مع القول الفصل والكلام البيّن الجليّ مع قوة المعنى وفخامته ورفعته.

الحادي عشر-أسست البلاغة العربية لمفهوم المرجعية المعرفية وضوابطها بين المتكلم والمتلقي،

فقد قامت إجراءات البلاغة على الإحالة على المرجعية المعرفية المشتركة بين المتكلم والمتلقي كما في المجاز المرسل والاستعارة والتشبيه والكناية. وقد بحث هذا القزويني في شروط حسن الاستعارة، فذكر أن الشبه بين طرفيها لابد أن يكون جليا بنفسه أو بعرف أو غيره(الخطيب القزويني، ٤٧٢/١٩٩٩).

الثاني عشر- في البلاغة ثلاثة مقامات،

إنّ اعتبار المقام مطلوب في صحة الكلام وبلاغته، فمقتضيات المقام التي بحثها علماء البلاغة هي ضوابط تحكم بلاغة النص، ومقامات الكلام متفاوتة ولاحصر لها، ولم يحصر علماء البلاغة المقام في وضعية المتكلم والمتلقي قبل إنتاج النص وصدوره، فهذا القمام الذي ذكروه في قولهم (لكل مقام مقال) هو الذي يكون قبل الشروع في الكلام، وأما بعد الشروع فيه فيحدث لنا مقام آخر وهو مقام الاقتران والتضام بين الكلمات، ثم يحدث لنا مقام آخر وهو مقام انتهاء الكلام، فصار لنا ثلاث مقامات ينبغي مراعاتها، ويمكن استيعاب قولهم (مقتضى الحال) في هذه المقامات الثلاثة، قال السكاكي ((ثم إذا شرعت فيا لكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتصى الحال)) (السكاكي،١٩٨٣/١٦٨-١٦٩).

الثالث عشر- العبرة في توصيف

أي أسلوب بلاغي هو بما يقصده المتكلم مما هو واضح عند المتلقي أنه يقصد معنى ما، ولهذا فرقت الاستعارة عن الكناية من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه.

(الخطيب القزويني، ٤٧٥/١٩٩٩)، فالذي يفرق بين الأساليب المتشابهة في البحث البلاغي هو قصد المتكلم.

الرابع عشر- كلام علماء البلاغة ليس على إطلاقه

حين أجمعوا على أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح وأن للاستعارة مزية وفضلا وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة، وهذا الإجماع على أبلغية ماذكر قد نقله عبد القاهر الجرجاني(الجرجاني، ١٩٩٢/٧٠) ولكن الأمر يحتاج إلى تفصيل، لأنا نرى من الكلام البليغ مالايتضمن كناية ولاتعريضا ولااستعارة ولامجازا.بل وقع في القرآن الكريم الإفصاح والحقيقة والتصريح، ولعل وقوع الحقيقة في القرآن الكريم أكثر من المجاز البلاغي.وهذا يدل على أن التأثير البلاغي فيما أجمع عليه علماء البلاغة ليس على إطلاقه وإلا لما اشتمل القرآن الكريم وغيره من الكلام البليغ مثل أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير ماذكروه، فالمزية في هذه الفنون البلاغية في كونها تفيد المعنى الذي يريده ويقصده المتكلم على طريقة إثبات المدعى (المعنى) وتقريره بالدليل، لأن الكناية والاستعارة والمجاز كلها تتضمن دليلا غير مصرح به إما على طريق اللزوم وإما على طريق القياس، ليكون إثبات المعنى بطريق الاستدلال المؤثر في المتلقي من أجل إقناعه وإنما كانت أبلغ من غيرها في مواضع الحاجة إلى الدليل حين يقتضي الاعتبار المناسب إقامة الدليل مع لطافة الجمال والإثارة فيما تحمله هذه الفنون، فالعبرة في الأبلغية هي وجود الاعتبار المناسب لكل نص لغوي على أي طريقة جاء، فقد تكون الحقيقة هي الأبلغ إذا اقتضى المقام التعبير بالحقيقة كما نجده في مواضع تثبيت التوحيد في القرآن الكريم ومثله إثبات النبوة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الأمر يحتاج إلى التوضيح وعدم التأويل كقوله تعالى(قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وكقوله تعالى في حق إثبات النبوة وعموم الرسالة(وماأرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)، فلا نجد في هذه الآيات وشبهها مجازا ولااستعارة ولاكناية لاقتضاء المقام الحقيقة في مثل هذه المعاني، فكانت الحقيقة هنا هي الأبلغ.

الخامس عشر- العرف الذي أحال إليه علماء البلاغة في معرفة بعض العلاقات

مثل الكناية والاستعارة والتشبيه هو نوعان، عرف مؤقت وعرف دائم، نقول هذا لأن مفهوم العرف هو أنه ما كان معروفا في زمن دون مابعده مثلا وفي مكان دون آخر، ففي العرف المؤقت يكون فهم الصور البلاغية معولا على عرف المتكلم، فلا تتضح الصورة البيانية من دون دراسة وضع المتكلم وعصره مثلا، ولهذا تندب دراسة عصر الشاعر من جميع النواحي عند دراسة ديوانه ليتضح العرف السائد في وقته وحينها تستنطق النصوص على وفق عرف الشاعر، ولولا معرفة ملابسات القائل والقول لما فهم النص لأن العرف الذي قيل فيه القول قد تخطاه الزمن وتغيرت الأعراف بعده، ولكن هناك عرف آخر وهو العرف الدائم الذي لايتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال وهو العرف الراجع إلى طبيعة الإنسان مثل كون الأسد مخوفا للإنسان، وكون الأسد شجاعا وكثرة الطبخ تعني كثرة الزائرين والضيوف، فهذه الأعراف ثابتة دائمة لاتتغير لأنها راجعة إلى طبائع حياتية ثابتة، وهذا الأمر يفسر لنا طريقة الأداء القرآني لكثير من الصور البيانية القائمة على العرف في تفسيرها، فقد قامت هذه الصور البيانية على العرف الدائم غير المتغير مما سمح لها بديمومتها واستمرار فعاليتها البلاغية والإبلاغية.

السادس عشر- لابد من التفريق في صناعة البلاغة بين الإجراء الشعري والإجراء النثري،

فلا يصح تتبع أثر المنظوم في صناعة نص نثري، فالشعر له كلماته وصوره وعلاقاته وضرورته المقبولة، وأما النثر فهو أسلوب آخر يفارق الشعر في بعض المسائل، ((إن كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنثور من الألفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظوم، وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنثور، وذلك شيء استنبطته، واطلعت عليه؛ لكثرة ممارستي لهذا الفن))(ابن الأثير١٤٢٠هـ/١٧٢)، فالشعر بطبيعته النظمية والشعرية يجوز فيه مالايجوز في غيره.

الخاتمة

وإذ وصلنا إلى الخاتمة فنذكر هنا أهم نتائج البحث بإيجازوهي:

١- علم البلاغة لايختص بلغة دون أخرى، وقد تتماثل كثير من الفنون البلاغية بين اللغات المختلفة كالعربية والانكليزية والفرنسية والروسية، فيما يمكن أن نسمي هذا الأمر بالبلاغية الكلية، ولكن للبلاغة العربية نظاما اختص بها بعد أن وافق اللغات

الأخرى في قوانينها البلاغية العامة، فكان لها أسس وإجراءات اعتمدتها في وضع علم البلاغة العربية.

٢- فصاحة الكلمات والكلام وإن وضع لهما علماء البلاغة ضوابط كلية ولكن المرجع إليهما هو الاستعمال ومراعاة العرف الذي يتغير بتغير الأزمان والأمكنة والظروف، مع أن بعض الصور البيانية والتلازمات الفنية قد تجري ضمن العرف الدائم الذي ينبع من طبيعة الإنسان مثلا، فبقيت هذه الصور معروفة مستعملة كما في التشبيهات والاستعارات والمجازات القرآنية.

٣- اهتم علماء البلاغة بالمران والدربة في تعلم البلاغة وصناعة الكلام الفصيح، بل أوجبوا التقليد في صناعة النص وإصدار الأحكام البلاغية في بدايات تعلم مهارات البلاغة، وهذا أيسر طريق في تعلم اللغة العربية للناطقين بغيرها بأسلوب فصيح معبر ومبلِّغ.

٤- يمكن جمع الألفاظ الفصيحة المستعملة السلسة السهلة وذلك بجمع كلمات القرآن والحديث النبوي الشريف، فيكون لنا معجما ميسرا في الكلمات الفصيحة ولاسيما لمن هو في بدايات تعلم اللغة العربية، ويمكن أن نزيد عليهما كلمات بعض الشعراء والخطباء المشهورين بالفصاحة.

٥- مقاصد الكلام معجونة في فنون البلاغة، ولهذا كانت هذه المقاصد مقترنة بأي موضوع بلاغي، والمقاصد ضروب متنوعة تكاد تكون غير محصورة لتباين الأعراف والأزمنة والأشخاص، ولكن يجمعها مقاصد كلية خمسة كما ذكرت في هذا البحث.

٦- المقامات التي بحثها علماء البلاغة هي ثلاثة، فمقام قبل الشروع في إنتاج النص ومقام اقتران الكلمات ومقام انتهاء النص، ويجمعها كلها في ماوسموه ب(مقتضى الحال).

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير، نصر الله بن محمد، المثل السائر، ط١، ١٤٢٠ه، بيروت، المكتبة العصرية.

٢- التفتازاني، مسعود بن عمر، ٢٠٠٧، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية.

٣- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، القاهرة، مؤسسة الخانجي.

٤- الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن، ١٩٩٢، دلائل الإعجاز، ط٣، جدة، دار المدني.

٥- حسان، تمام، ٢٠٠٦، اللغة العربية معناها ومبناها، ط٥، القاهرة، عالم الكتب.

٦- الخطيب القزويني، محمد بن عبدالرحمن، ١٩٩٩، الإيضاح في علوم البلاغة، القاهرة-بيروت، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني.

٧- السبكي، أحمد بن علي، عروس الأفراح، ط١، ٢٠٠٣، بيروت، المكتبة العصرية

٨- السكاكي، يوسف بن أبي بكر، ١٩٨٣، مفتاح العلوم، ط١/بيروت، دار الكتب العلمية.

٩- سيبويه، عمرو بن عثمان، ٢٠٠٩، الكتاب، ط٥، القاهرة، مكتبة الخانجي

١٠- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، ١٩٩٠، الأشباه والنظائر، بيروت، دار الكتب العلمية.

١١- الشافعي، محمدبن إدريس، الرسالة، ط١، ١٩٤٠، القاهرة، تحقيق أحمد شاكر، الحلبي

١٢- العسكري، الحسن بن عبدالله، ٢٠١٣، كتاب الصناعتين، ط١، بيروت، المكتبة العصرية.

١٣- عصام الدين، ابراهيم بن محمد، الأطول شرح تلخيص المفتاح، ط١، ٢٠٠١، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٤- العلوي، يحيى بن حمزة، ١٩٩٥، الطراز، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٥- عياض، عياض بن موسى، الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، ط٢، ١٤٠٧ه، عمان،

١٦- اللخمي، ابن هشام، شرح الفصيح، ط١، ١٩٨٨، القاهرة، الخانجي،